قصـــة المـكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ٤ —

وصل الفائت

اكتشف متشنيكوف فى بعض الأحياء المائية الصغيرة خلايا تدور فى أجسامها فاذا هو حقن فى هذه الأحياء صبغة تجمعت تلك الخلايا فأكلت الصبغة . وإذا شك الحيوان بشوكة نهضت تلك الخلايا اليها تدفع السوء الداخل . وأدخل فى أجسام تلك الأحياء خمائر قاتلة ، فنهضت اليها الخلايا فالتهمتها . عندئذ فسر الحصانة بأنها حرب بين خلايا طليقة فى الأجسام كتلك كرات الدم البيضاء وبين المكروبات الداخلة اليها . وأسمى هذه الخلايا بجوسات

اتجه متشنيكوف بعد ذلك يبحث فى هذه الحروب هل هى عينها التى تقع فى الضفادع والأرانب . وفى عام ١٨٨٦ وردت أخبار بستور من وراء الحدود تنقل حديث شفائه الروسيين الستة عشر من عضة الكلب المسعور بعد ضياع الرجاء فيهم (١) ، فاهتز أهل أودسا الأخبار لهذه الأخبار ، ونهضوا ، ونهض معهم أهل الريف الذى حولهم حتى حدود المقاطعة ، نهضوا جميعاً يشكرون الله على ما حبا ، ويهتفون لبستور على ما أتى ، وجمعوا كيساً ضخماً من الروبلات (٢) لاقامة معمل يُنشأ توّاً فى أودسّا . وعيّنوا متشنيكوف مديراً علمياً لهذا المعهد الجديد . ولمَ لا ؟ أليس هو الرجل الذى درس فى كل جامعات أوربا ؟ أليس هو العالم العلاّمة الذى خطب أطباء أودسا فأفاض عليهم من منابع علمه تلك الافاضة الكبرى ؟ أليس هو الذى شرح لهم ما خفى من أمر فَجُوسات (٣) الدم التى تأكل المكروب أكلا لمّا ؟ ونسوا حيناً أنه يهودىّ !

وكنت إذا تسمّعت الى الناس وجدتهم يقولون : « من مديرنا ! فلعل فى معهدنا الجديد يستطيع أستاذنا متشنيكوف أن يدرّب هذه الفجوسات الصغيرة على التهام كل أنواع المكروبات ! » .

وقَبِل متشنيكوف هذا المنصب الجديد ، ولكنه احتاط فقال لرجال السلطة قول الحذِر البصير : « أنا رجل اكبر همّه فى النظريّات ، وأبحاثى كثيرة لا يكاد يتسع لها وقتى ، وإذن فمن الواجب أن يتدرّب غيرى على صناعة الألقحة vaccines وأن يقوم بالجزء العملىّ من واجبات المعمل »

ولم يكن فى أودسّا فى ذلك الوقت رجل واحد يعرف عن صيادة المكروب شيئا . لذلك أرسلوا صديق متشنيكوف الدكتور جماليه Gamaléia بسرعة الى باريس الى معهد بستور . فلما حل فيه صحب بستورَ وصحب رو فى عملهما وتعلّم منهما الشىء الكثير ، ولكن هذا الكثير لم يؤذَن له ببلوغ الكفاية ، فان أهل أودسّا قل صبرهم ، وزاد قلقهم ، واشتدت رغبتهم فى الخلاص من الأمراض فصاحوا يطلبون الألقحة ، فاضطُرت السلطة تحت هذا الضغط العام الى استدعاء الدكتور جماليه ، ولم يكن طال مقامه فى باريس . فلما عاد بدأ يصنع لِقاحا لداء الجمرة تخليصاً لشياه الريف ، ولقاحا لداء الكَلَب دفعا له عن أهل المدينة . عندئذ صاح متشنيكوف فى الناس : « والآن كل شىء لابد سائر كما نهوى » وهو يجهل كل الجهل تلك الألاعيب الثقيلة التى تلعبها المكروبات أحيانا على ممارسيها . ثم اعتكف الى نظرياته يبحث فى الأرانب والكلاب والقردة ليرى أفى استطاعة فجوساتها أن تبتلع مكروب السل والحمرة والحمّى الراجعة . وانطلقت النشرات العلمية تخرج من معمله فى تلاحق سريع ، وأخذ بُحّاث أوروبا يتأثرون بكشوفات ذلك الرجل العبقرى ببلاد الروس السفلى . ولكنه لم يلبث أن بدت له المصاعب فى نظريته ، فالكلاب والأرانب والقردة ليست شفّافة كبراغيث الماء

ثم أخذ الحال يسوء فى المعمل ، فأخذ الخصام يدب بين رجاله وعلى رأسهم الدكتور جماليه ، فاختلطت الألقحة وتلوّثت ، وانكبت على الأرض من آنيتها . وجاء أطباء البلد يتسلّلون وفى قلوبهم بالطبع حفيظة وغيرة من هذا العلاج الجديد ، وأخذوا يسألون الأسئلة المحرجة ليُشيعوا شاعة السوء فى الناس : « من هذا الأستاذ متشنيكوف ؟ ومن أين جاءته الأستاذية وهو

(١) أنظر ما سبق من ترجمة بستور

(٢) الروبلة هى الوحدة الفضية الروسية ، وهى من الفضة وتساوى نحوا من نصف ريال مصرى (٣) كرات البيضاء

لا يحمل شهادة طبيب؟ إنه ليس إلا رجل طبيعي Naturalist ، وصيّاد جراثيم ، فمن أين جاءته معرفة الأمراض والوقاية منها؟ »

وصاح الناس: « أين العلاج المزعوم؟! » وصاح المزارعون الذين نزلوا بأيديهم عميقاً في أكياسهم طلبَ النقود الكثيرة يبذلونها عن طَواعية: « أين الحصانة الموعودة؟ » . واضطر متشنيكوف الى الخروج من محرابه ساعة ، والبروز من ضباب نظريته وبحوثاته حينا ، ليصرف الناس عن شكواهم ، وكانت الفئران عائثة في الحقول فأكلت المحاصيل ، فبذر في تلك الحقول بشلّة كوليرا الدجاج لتقضي على الفئران . ولكن تقريرا خطيرا كاذبا كُتب من فار ظهر في الجريدة اليومية يتهم متشنيكوف أنه انما بذر الموت والوبال في الحقول ، لأن كوليرا الدجاج تستطيع أن تتحول الى كوليرا الانسان ... !

فضجر متشنيكوف وشكا في خفوت: « ما شأني بهذا الصخب؟ أنا رجل باحث وأبحاثي متكاثرة عليّ ، وأنا رجل ذو نظرية ، ونظريتي في حاجة الى كثير من الهدوء لتشتد وتنمو .... » وسأل أهلَ السلطة إجازة فأعطوه إياها ، فحزم حقيبته وذهب الى مؤتمر فينّا ليخبر كل من يجد هناك بأمر بحوثاته ، وليجد لنفسه ركنا هادئا يستقر فيه ويعمل بعيدا عن الضوضاء ، فلا يكون مضطرا لاثبات صحة نظرياته لسلطات قليلة الصبر تطلب خلق العلاجات ، ولا يكون مدفوعا لارواء شهوة الفلاحين وتعويضهم عن كل قرش دفعوه بتعجّل الأدوية وابتسار الحصانات . ومن فينا ذهب الى باريس ، وفي باريس انتظره نجاح باهر لم ينتظره . فهناك تعرّف الى بستور العظيم ، فما إن تمّ التعارف حتى انفجر يحدثه عن بحوثه ونظريته فيها ، ووَصَف له المعارك التي تقع بين الفجوسات والمكروبات وصفا بديعا سِنَمَاويّا جذّابا ، وتأمل شيخ المكروب صاحبنا بعين مُتعبة طميسة أخذت تبرق للذي تسمع حينا بعد حين ، فلما انتهى الحديث ، قال بستور: « أنا في صفّك يا أستاذ متشنيكوف ، ذلك لأنه كثيرا ما استوقفتني معارك كالتي تصف كنت ألحظها بين شتى الأحياء المجهرية الدنيئة ، وإني لأحسبك سائرا على هدى في الطريق الذي أنت فيه »

لم يكن بين المعارك التي ذكرها بستور وبين تلك التي يصفها ميشنيكوف صلة أصلاً ، ومع هذا فقد امتلأ قلب متشنيكوف مما سمع سرورا ، وامتلأت نفسه زهواً . وكيف لا ، وهذا أبو المكروبات الشيخ الأجل استمع له وفهمه ثم آمن به ... وكان أبو ألجا قد مات وترك لهم دخلاً متواضعاً . وتراءى لمتشنيكوف أن باريس مهد طيب لنظرية الفجوسات إذا هي آزرها معهد ذو جاه كمعهد بستور ، فسأل بستور: « سيدي ، أود لو يكون لي مكان في معهدكم ، وأنا بهذا انما أبغي العمل في معملكم على أية صورة وبغير أجر » . وأدرك بستور أنه لابد من استبقاء حماسة الجماهير لصيادة المكروب ، وأن رجل الشارع لا يفهم من العلم غير تلك الأحداث المهيجة والدرامات المثيرة ، فأجاب متشنيكوف عن سؤاله: « أنا لا أقبلك تعمل في معملي فحسب ، بل سيكون لك فيه معمل كامل موقوف عليك » . وسافر متشنيكوف الى أودسا ، وفي طريقه التقى بكوخ فجَبَهه كوخ واستغلظ له ، وأخذ يفكر ويخاير نفسه بين قبول العمل في المعهد الفرنسي والتخلص من قوم لا ينفتأون يصرخون يستعجلون النتائج ، وبين البقاء في المعمل الروسي والابقاء على المرتب الطيب الذي يتقاضاه منه . . . وقرر بعد التردد أن يبقى حيث هو من أودسا وواصل عمله فيها ، ولكن حدث بعد قليل حَدَثٌ لم يترك لنفسه خياراً . ذلك أن الفلاحين زادت شكواهم من القطمان التي تموت بالجمرة وعلت أصواتهم في طلب الألقحة ، فأمر متشنيكوف الدكتور جماليه أن يحقن الشياه بلقاح الجمرة جملة واحدة . وذهب متشنيكوف وزوجته ألجا الى يبتهم الريفيّ الصيفيّ ، وذات يوم جاءتهم فيه الرسالة التلغرافية الآتية من الدكتور جماليه :

قتَل لقاح الجمرة آلافا من الشياه

فلم تمض أشهر قليلة حتى كان متشنيكوف استقر في معهد بستور الجديد في باريس ، والى جانبه ألجا — تلك الزوجة الطيبة — التي كانت لا تقصّر في عمل أي شيء لزوجها لأنه عبقري ولأنه عطوف عليها — قامت الى جانبه تمسك له الحيوان وتنسل له الزجاجات ، وهي لو تُركت لنفسها لفضّلت تصوير الزيت أو نحاتة الحجر — فنّين جليلين أقرب لمتعتها وأملأ لشهوتها . ومن تلك الساعة مشى الزوجان ، يداً في يد ، في طريق النصر من غلبة الى غلبة ، وقد انتثرت على جانبيه من أخطائهما ورود زادت طريقهما روعة وجمالاً

(يتبع)

أحمد زكي